

التربية بالقدوة لا بالكلمات: قراءة في كتاب “الأطفال يتعلمون ما يعايشونه”

تخيل طفلك كجهاز تسجيل خفي، يلتقط كل حركة، كل نظرة، كل نبرة صوت، ثم يعيد بثها لاحقاً في سلوكه. هذا ليس خيالاً علمياً، بل خلاصة ما أثبتته علم النفس التربوي عبر عقود، وما صاغته دوروثي نولتي وراشيل هاريس في كتابهما: “الأطفال يتعلمون ما يعايشونه”.

بينما ننفق الساعات في تعليم أبنائنا قواعد النحو والرياضيات، ننسى أنهم يتعلمون دروساً أعمق بكثير دون كلمة واحدة: يتعلمون الصدق حين يروننا نفي بوعد، ويتعلمون العنف حين يشاهدوننا نحطم الأشياء غضباً، ويتعلمون الكذب حين نطلب منهم إخبار المتصل أننا “لسنا في البيت”!

هذا الكتاب الذي تُرجم لأكثر من 30 لغة يقلب التربية التقليدية رأساً على عقب: فالوالدان ليسا مجرد مدرّسين، بل “نصوص حية” يقرأها الطفل كل يوم ليكتشف معنى الحياة. فما الذي يقرأه أطفالنا فينا؟

يُعد “كتاب الأطفال يتعلمون ما يعايشونه” للدكتورة دوروثي لول نولتي والدكتورة راشيل هاريس، ونشر الترجمة العربية مكتبة جرير من الكلاسيكيات المؤثرة في مجال التربية والتنمية البشرية. لا يقدم نصائح معقدة أو نظريات صعبة، بل يركز على فكرة جوهرية بسيطة وقوية: الأطفال هم مرآة لبيئتهم، خاصة بيئة المنزل. فهم لا يتعلمون من الكلمات فحسب، بل بالأساس من المشاهدات والتجارب الحية التي يعايشونها يومياً مع أهم الأشخاص في حياتهم – آبائهم ومقدمي الرعاية.

الفكرة المحورية: الانعكاس السلوكي

العنوان كخلاصة: “الأطفال يتعلمون ما يعايشونه” (Children Learn What They Live) ليست مجرد عنوان، بل هي فلسفة كاملة. الطفل الذي يعيش في بيئة مليئة بالنقد، يتعلم إدانة الآخرين. الطفل الذي يعيش في بيئة تشجيع، يتعلم **الثقة بالنفس**.

القدوة الحية: يؤكد الكتاب أن أفعال الوالدين وتصرفاتهم اليومية، وطريقة تعاملهم مع بعضهم البعض ومع الطفل ومع العالم الخارجي، هي المنهج الخفي والأقوى تأثيراً في تشكيل شخصية الطفل وقيمه وسلوكه أكثر من أي محاضرة أو توجيه لفظي.

المبادئ التربوية

يبني كتاب "الأطفال يتعلمون ما يعيشونه" حول سلسلة من المبادئ الأساسية، كل منها يوضح كيف ينعكس سلوك الوالدين على تطور الطفل:

- إذا عاش الطفل مع النقد (Criticism) يتعلم إدانة الآخرين (Condemnation). والرسالة هي التركيز الدائم على الأخطاء يزرع في الطفل روح النقد السلبي وعدم التسامح.
- إذا عاش الطفل مع العداء (Hostility) يتعلم الشجار والصراع (Fighting) والرسالة هي البيئة المشحونة بالغضب والصراخ والعنف (اللفظي أو الجسدي) تعلم الطفل أن العدوان هو الوسيلة الوحيدة لحل المشكلات.
- إذا عاش الطفل مع السخرية (Ridicule): يتعلم الخجل والانطواء (Shyness) والرسالة هي الاستهزاء بمشاعر الطفل أو أفكاره أو مظهره يدمر ثقته بنفسه ويجعله يخاف من التعبير عن ذاته.
- إذا عاش الطفل مع الخزي (Shame) يتعلم الشعور الدائم بالذنب (Guilt) والرسالة معاقبة الطفل بقسوة أو إهانته أمام الآخرين، أو جعله يشعر بأنه "سيء" بطبيعته، يزرع فيه إحساساً مزمناً بالدونية والذنب غير المبرر.
- إذا عاش الطفل مع التسامح (Tolerance) يتعلم الصبر (Patience) والرسالة هي تفهم أخطاء الطفل (المناسبة لعمره) والتعامل معها بصبر وتعليمه بدلاً من العقاب القاسي، يعلمه بدوره كيف يكون متسامحاً وصبوراً مع نفسه والآخرين.
- إذا عاش الطفل مع التشجيع (Encouragement) يتعلم الثقة بالنفس (Confidence) والرسالة الإيمان بقدرات الطفل، وتشجيعه على المحاولة، والثناء على جهوده (حتى لو لم ينجح تماماً)، يبني فيه حجر الأساس للثقة وتقدير الذات.
- إذا عاش الطفل مع المديح (Praise) يتعلم تقدير الذات والتقييم (Appreciation) والرسالة هي المديح الصادق والمناسب للإنجازات والسلوكيات الإيجابية (وليس المبالغ فيه أو العام) يساعد الطفل على فهم قيمته وتعلم تمييز الجيد في نفسه وفي الآخرين.
- إذا عاش الطفل مع الإنصاف (Fairness) يتعلم العدل (Justice). هي الرسالة تطبيق القواعد بشكل عادل ومتسق، والاستماع لوجهة نظر الطفل (حسب سنه)، والاعتراف بأخطاء الوالدين أحياناً، يعلم الطفل مبادئ الإنصاف والمساواة.



- إذا عاش الطفل مع الأمان (Security) يتعلم الإيمان (Faith) والرسالة هي: توفير بيئة مستقرة عاطفياً وجسدياً، حيث يشعر الطفل بالحب غير المشروط والحماية، يمنحه الثقة الأساسية في العالم وفي من حوله، وهي أساس الإيمان (بالمعنى الواسع: الثقة بالحياة، بالناس الطيبين، بالقيم).

- إذا عاش الطفل مع القبول والصداقة (Approval & Friendship) يتعلم حب النفس وحب العالم (To love himself and to find love in the world). فعندما يشعر الطفل بأنه مقبول كما هو، وبوجود رابطة صداقة واحترام مع والديه (مع الحفاظ على الحدود والسلطة الوالدية)، يتعلم أهم درس: حب ذاته، ومن ثم القدرة على إعطاء وتلقي الحب في علاقاته الحالية والمستقبلية.

أهمية الكتاب

- البساطة والعمق: قوة الكتاب تكمن في بساطة عرضه لفكرة عميقة ومعقدة، تجعلها في متناول كل والد ومربي.
- الوعي بالمسؤولية: يذكر الوالدين بقوة تأثيرهم غير المباشر، ويدفعهم لمراقبة سلوكياتهم وتصرفاتهم اليومية باعتبارها رسائل تربوية صامتة.
- التشجيع على التغيير: لا يركز الكتاب على لوم الوالدين، بل يقدم رؤية واضحة لكيفية خلق بيئة إيجابية. يذكرهم أنه لم يفت الأوان لبدء التغيير.
- التذكير بالحب غير المشروط: يؤكد أن جوهر التربية هو توفير الحب والأمان كأساس تنمو فوقه جميع القيم والمهارات الأخرى.
- التركيز على الحلول: كل مبدأ سلبي يقابله مبدأ إيجابي يوضح البديل التربوي الفعال.
- التربية بالقدوة: تعديل سلوك الوالدين هو الخطوة الأولى لتعديل سلوك الأبناء.
- البيئة العاطفية: الحب غير المشروط والأمان النفسي هما الأساس لتنمية الشخصية السوية.
- التغيير ممكن: يمكن بدء تطبيق المبادئ الإيجابية في أي مرحلة عمرية للطفل.
- المسؤولية المشتركة: التفاعل بين جميع أفراد الأسرة (الإخوة، الأجداد) يسهم في تشكيل خبرات الطفل.

خلاصة القول



“الأطفال يتعلمون ما يعايشونه” هو أكثر من كتاب تربية؛ إنه دليل عملي للوعي الوالدي. إنه يذكرنا بأننا، كأباء وأمهات، لسنا مجرد مقدمي رعاية ومعلمين بالكلمات، بل نحن النموذج الحي الدائم الذي يقلده أطفالنا. البيئة العاطفية والسلوكية التي نخلقها في المنزل هي التربة التي تنمو فيها بذور شخصياتهم. من خلال مراجعة سلوكنا وتعاملاتنا واختيارنا الواعي لتوفير بيئة غنية بالتسامح، التشجيع، الإنصاف، والأمان، نمنح أطفالنا أعظم هدية: فرصة أن يتعلموا ويكبروا ليصبحوا بالغين واثقين، متسامحين، عادلين، وقادرين على الحب. الكتاب دعوة لنا جميعاً لتأمل: ما الذي يعايشه أطفالنا معنا اليوم؟ وما الذي نريدهم حقاً أن يتعلموه؟ الإجابة تكمن في مراقبة أفعالنا قبل كلماتنا.